

في المعلقات أيضاً

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

..... ولا بد قبل المضي في تكميل رأينا في المعلقات أن نمود إلى الكلام على مذاهب علماء الأدب ، قدمائهم ومحدثيهم في تسميتها ، فإن الذي يراه أبو جعفر النحاس ليس كما ذكرناه في (الرسالة) وذكره غيرنا قبلنا فتأثرنا به ، أن هذه القصائد سميت باسم المعلقات من قول الملك (علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني) فيكون أبو جعفر على هذا مشاركا لغيره من القدماء في قدم هذه التسمية ، ولا يخالفهم إلا في توجيههم لها بأنها مأخوذة من تمليقها على الكعبة . ويذهب علماء الفريسة الأوروبيون بفضل الرأي الراجح الآن في هذه التسمية ، أنها حديثة مصنوعة في عصر التدوين أو قبله بقليل ، وأنا ننقل هنا كلام أبي جعفر في ذلك لئرى مذهبه حقيقة فيه .

قال في افتتاح شرحه للقصائد السبع : « الذي جرى عليه أمر أكثر أهل اللغة الأكارب في تفسير غريب الشعر ، إنغال لطيف ما فيه من النحو ، فاختصرت غريب القصائد السبع المشهورة ، وأثبتت ذلك ما فيها من النحو ، ولم أكثر الشواهد ولا الأنساب ، ليخف حفظ ذلك إن شاء الله تعالى » .

وقال في آخر شرحه لها : « فهذه القصيدة آخر السبع المشهورات ، واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع ، فقيل العرب كان أكثرهم يجتمع بمكاظ ويتناشدون ، فاذا استحسن^(١) الملك قصيدة قال : علقوها وأثبتوها في خزائني . فأما قول من قال إنها علفت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصح ما قيل إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر ، جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم هذه المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة لهذا » .

فهذا صريح في أن أبا جعفر لا يرى في المعلقات أيضاً رأى

(١) لا يمكن أن يفهم من هنا ما فهم الأستاذ نولدكه أن هنا الملك كان معهم في عكاظ ، فقال إن من الصعب احتمال أن ملكاً عربياً كان يشهد سوق عكاظ ، بل الذي يفهم منه أنه كان يمل ذلك وهو في حاضرة بله بعد أن يجمع العرب على استحسان القصيدة في عكاظ ، ولا شك أن خزانته في حاضرة ملكه ، فلا يقول أثبتوها فيها إلا وهو بها .

من يذهب إلى أن تسميتها بذلك مأخوذة من قول الملك (علقوا لنا هذه) وإن كان يراه أرجح من رأى من يرى أن تسميتها بذلك مأخوذة من تمليقهم لها بالكعبة ، فكلا الرأيين عنده مبنى على أن هذه القصائد كانت مجموعة قبل جمع حماد لها ، فكانت معروفة عندهم بهذا الاسم (المعلقات) أو غيره إن كان لها اسم غيره ، لأن جمعها هو الذي يجعل لها وجوداً خاصاً يحتاج أن تتميز فيه إلى اسم من الأسماء .

وأبو جعفر ينكر جمع هذه القصائد قبل جمع حماد لها ، فهو عنده هو الذي جمعها ، لما رأى زهد الناس في الشعر ، فجمعها لهم من الشعر القديم ، وحضهم عليها ، وهذا رأى آخر عند أبي جعفر غير ذينك الرأيين ، وقد رآه أصح ما قيل في هذه القصائد فهناك لقدمائنا إذن في هذه القصائد ثلاثة آراء لارأيان، وأصح هذه الآراء الثلاثة عند أبي جعفر أن هذه القصائد لم يكن بعضها يمت إلى بعض قبل جمع حماد لها ، بل كانت منعمورة في الشعر العربي الجاهلي مثل غيرها من القصائد الجاهلية ، ولم تكن تمتاز عليها باسم يجمعها من اسم المعلقات أو غيره ، فلما جمعها حماد للناس قال لهم هذه المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة لهذا ، وهو الاسم الذي ذكرها به أبو جعفر في افتتاح شرحه لها وفي آخره أيضاً . ولا شك أن محاشيه ذكرها باسم المعلقات كما يسميها غيره ويوجهه بأحد ذينك التوجيهين دليل على أنه لا يرى صحة تلك التسمية ولا يرى صحة التوجيهين اللذين وجهوا بهما ، فهي عنده تسمية مستحدثة مصنوعة بعد الإسلام ، وبمد جمع حماد لها ، وهذا هو الذي تنسبه الآن إلى علمائنا الأوربيين ليذهبوا بفضلها ، وينسب في فضل أبي جعفر رحمه الله .

هنا وقد رأيت فيما رجعت إليه قبل كتابة هذا المقال من شروح المعلقات ، وقد تملت نفسي باستقصائها حتى يحى بحنى وافية فيها من تلك الناحية ، رأيت ما يتفق مع رأيتي في المعلقات في مقدمة الطبعة الثيرية لشرح الخطيب التبريزي على المعلقات العشر ، إذ جاء فيها : (وذهب فريق إلى أن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صنارهم وكبارهم ومرؤوسيههم ورؤسائهم ، وذلك لشدة اعتنائهم بها) وهذا قريب من رأيتي في المعلقات ، وهو من عجائب توارد الخواطر ، ولكنه لم يبين في تلك المقدمة

طحا بك قلب في الحان طروب

'بميد الشباب عصر حان مشيب'

فقالوا هاتان سمطا الذهب

ويمكننا بعد هذا أن نجزم بأن اسم السموط كان يطلق عند العرب على قصائد غير هذه القصائد السبع ، ولا يدل ما ذكره المفضل على حصر هذه التسمية (السموط) في هذه القصائد السبع ، وإنما معناها أنها كانت تسميها السموط فيما كانت تسميه بذلك من قصائدها ، فلا يدل ذلك على أنها كانت مجموعة متميزة عند العرب بهذا الاسم قبل جمع حماد لها ، بل يتفق هذا أيضاً مع ما رجحه أبو جعفر النحاس من أن حمادا هو الذي جمعها ، ولا يخالفه في شيء من المخالفة .

هذا وقد كانت وفاة حماد الراوية سنة ١٥٥ هـ ، ووفاة المفضل الضبي سنة ١٦٨ هـ ، ووفاة أبي زيد القرشي صاحب الجهرة سنة ١٧٠ هـ ، فنستطيع مع هذا أن نحكم بأن هذه القصائد السبع ما كانت تعرف باسم الملققات إلى سنة ١٧٠ هـ ، وإنما كانت تسمى القصائد المشهورة أخذاً من قول حماد فيها بعد جمعها هذه هي القصائد المشهورة ، وكان يقال لها السموط كما كان يقال لبعض قصائد أخرى ، فلم يكن هذا اسماً خاصاً بها ، وقد سماها المفضل السبع الطوال فيما نقله أبو زيد في الجهرة عنه .

وقد تقينا في المقدمة التي ذكرها أبو زيد في جهرته قبل القصائد السابقة التي أوردتها فيها ، فلم نجد فيها ما يمكن أن يؤخذ منه أن السبع الأولى منها كانت تسمى في عصره باسم الملققات . وكان الواجب على طابى الجهرة أن يلاحظوا ذلك فلا يضموها تحت اسم الملققات ، ولا يذكروا قصيدة امرئ القيس (قفانك) - تحت اسم معلقة امرئ القيس ، ولا قصيدة زهير (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) تحت اسم معلقة زهير ، وهكذا في باقي السبع ، وهو خطأ ظاهر ، وتسمية لهذه القصائد بما لم يسمها به صاحب الجهرة . فإن كان هذا في الأصل الذي طبعوا منه فهو خطأ من ناسخه قطعاً . ولعلنا نظفر بعد هذا بأول من سماها باسم الملققات في الزمن الذي بين أبي زيد القرشي وأبي جعفر النحاس وهو الذي أورد فيها ما نقلناه عنه من ذلك الخلاف ؟

عبد المتعال الصعيرى

هل يذهب من يرى هذا في الملققات إلى أن تلك التسمية على توجيها قديمة أو مصنوعة ، والظاهر أنه يراها قديمة ، وهو خلاف ما نراه فيها على توجيها لها .

وقد جمعت هذه القصائد السبع بعد جمع حماد لها جميعاً أخرج قصائد أخرى يبلغ جميعها تسعاً وأربعين قصيدة ، قال عنها المفضل الضبي إنها عيون أشعار العرب في الجاهلية والاسلام ، وأنفس شعر كل رجل منهم ، وهي التي جمعها أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه جهرة أشعار العرب .

ويخالف المفضل حمادا في أصحاب هذه القصائد السبع ، فهم عند حماد : امرؤ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، ولييد بن ربيعة . وهم عند المفضل : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولييد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة . وقد تبع المفضل في هذا أبا عبيدة ، وقال عن الشعراء السبعة : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط ، فمن قال إن السبع لتعريفهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة » . ثم ذكر بعد هذا السبع المجهرات ، والسبع المنتقيات ، والسبع المذهبات ، والسبع الرائي ، والسبع المشوبات ، والسبع اللحيات .

وإذا كان المفضل يخالف حمادا في هذا فهو يوافق في أنه لم يرد فيها رواء أبو زيد القرشي عنه تسمية هذه القصائد السبع بالملققات ، ولم يذكر إلا أن العرب تسميها السموط ، فإذا كان يعنى العرب الأقدمين فهي تسمية جاهلية ، وإذا كان يعنى العرب في عصره فهي تسمية إسلامية . وقد كانت العرب قبل الاسلام تطلق هذا اللفظ على غير هذه القصائد السبع ، ومن ذلك ما رووا أن علقمة الفحل كان يأتي مكة فيعرض شعره على قريش ، وكانت العرب تعرض أشعارها عليهم ، فما قبلوا منها كان مقبولاً ، وما ردوا كان مردوداً ، فأنام مرة فيعرض عليهم قصيدته :

هل ما علمت وما استودعت مكنوم

أم جليها إذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا : هذا سمط الذهب ، ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم قصيدته في مدح الحارث النسائي ، وكان أسر أخاه شاسا فرحل إليه يطلبه :